البعثة البابوية الى البلاد السوفياتيّة

بقلم حضرة الاب جان كابُّو اليسوعيّ (تابع)

٤ اوپاتورية

هي المعاملة التي عهدت الينا دولة روسيّة الاهتمام بجياعها من الاولاد في عدد ١٥،٠٠٠ مع معاملة دجانكوي وعددهم اوفر من ١٨،٠٠٠ لكنّ تأخُّر الحكومة في تجهيز قطارات السفر أجّل سفرنا الى ٢٨ آب. فركبنا السكّة في عصر ذلك النهار وجعلنا اثقالنا تحت نظارة جنديّين احرزا دفعنا لكلّ منهما ثلثة ملايين من الروبل. فخدمونا بامانة وانبساط وامّا نحن فلم نجد سوى قطار من الدرجة الرابعة كان فارغاً وانتظر من سواه امكنّا ان نرقد فيه ليلاً. وكان سير القطارات في الساعتين الاوليين بطيئاً ثم اخذت تخفّف سيرها وتتباطأ الى ان سئم الركّاب بُطئها فنزلوا يجرون معها على تمام. وكان هناك اولاد يرعون المواشي فتركوا بقرهم وجاؤوا ليجلسوا على مواطئ اقدام القطارات وبعد ان قطعوا هكذا ميلاً او ميلين كانوا ينزلون منها ويعودون الى مواشيهم. فقطعنا المسافة الفاصلة بين ناودوسية وسمفيروبول (Simphéropol) وبالثني عشرة ساعة وهي لا تزيد عن مئة كيلومتر لنفوذ الوقود اللازم لتحريك القطارات

فنزلنا في المحطّة صباحاً وطلبنا اثقالنا فاذا هي مفقودة فأسرعتُ الى رئيس المحطّة لأطالبهُ بها فكان جوابهُ انّ القطار المقلّ لها ليس هناك وانّهُ لا علم لهُ بمجيئهِ ولا إعلان بوصوله

فامتعضنا لهذا الامر اي امتعاض وسرتُ الى دار الحكومة فعرضت الامر لرئيسها المسيو كريوف فاخذ التليفون وراجع العمّال في جانكوي فكان الجواب انّ حوائجنا هناك في قطار فُصل عن بقيّة القطارات لضعف قوّة البخار عن جرّ القطارات الحاملة الاثقال. فانتظرنا ثلثة أيام حتى حصلنا على اثقالنا. امّا الجنديّان المراقبان لها فبقيا في حراستها مرغومَين فالتزمنا ان نعوّض عليهما اجرة حراستهما في هذه المدّة

صورة بوزنطية للبتول
كانت اللجنة البابوية تعرضها في مطاعم روسية

اجازة بابوية روسية
معطاة لاعضاء اللجنة المرسلة لمساعدة المنكوبين في روسية

وبينما كنّا في سيمفيروبل لحقنا ثلثة من رفقتنا راكبين السيّارات فعند بلوغهم من المحطة انفرد جنديّ باحدهم وادخلهُ غرفتهُ الخاصّة ثمّ طلب منهُ وبيدهِ سلاحهُ ان يعطيهُ ثلثين مليوناً من الروبل . فاجاب الاب : ليس معي دراهم فدعني اطلب من رفقائي . لكنّ الجنديّ كان واقفاً على الباب يتهدّدهُ فلم يجد سبيلاً الى الخروج لولا انّ رفيقيهِ وقتئذٍ مرّا بقربهِ صارخين فخاف الجنديّ على نفسهِ وفتح الباب فنجا الاسير من شرّهِ

كان وصولنا الى اوپاتورية في سلخ شهر آب فاسرعنا الى تجهيز مطعم لتوزيع المآكل على الجياع . لكنّ البعض منّا أصيبوا بعلل مختلفة حالت دون السرعة في شغلنا فشعر الواحد بوجع المدة والآخر بالحمّى والثالث بالمغص فعرفنا ان السبب من مبيعات الروس القذرة ومياه اوپاتورية السيّئة التي يأنفها الروس غالباً ويبدلونها بالشاي

ففي ٦ ايلول كان مَطعمُنا مهيّأً مع المطبخ لاعداد المآكل وتوزيعها . فكان الاولاد يتراكضون حولنا منتظرين طعامهم سدّاً لجوعهم . فكنّا نُلاطفهم ونكلّمهم بلغتهم على قدر استطاعتنا فكانوا يتبسّمون عند سماعهم الفاظنا ثمّ يصطفّون بلطف وقد سألت بعضهم : اتذهبون الى المدرسة ؟ — نعم — وكيف نجاحكم فيها ؟ — قليل بل عدم : لأن اكثر الاولاد يغيبون امّا لجوعهم واما لبرد الطقس وعريهم — ان شاء الله في العام القادم تزيدون نشاطاً ونجاحاً — في العام القادم ستفرغ المدرسة لان الحكومة فرضت على كل ولد مئة مليون روبل في الشهر وأهلنا لا يملكون شيئاً . قال هذا وأردف ملتفتاً الى ولد آخر : ولعلّ هذا يثبت على التعليم . — ولاي سبب ؟ — لانهُ يهوديّ غنيّ جدّاً

وبلغنا انّ السوڤيات فرضوا على الاهل تعليمَ اولادهم . الّا ان مدارسهم في اسوإ حال ولاسيما من جهة آدابها فان الفساد غالب عليها لانّ قسماً من معلّميها لا دين لهم يجاهرون بالزندقة والقسم الآخر مع تديّنهم قد حُتم عليهم بان يسكتوا تماماً عن الدين أمام الاولاد الذين لم يبلغ عمرهم الثاني عشرة سنة . على انّ فساد الآداب شائع خصوصاً في مدارس المدن الكبرى كبتروغراد وموسكو

وكان اثنان منّا يتجوّلان في معاملتي اوپاتورية وجانكوي ويقتدان المعلومات عن ضحايا المجاعة فيها فيأتياننا بإفادات ينفطر لها قلبنا حزناً . قالوا انّ بعضهم يتزعون

احذيتهم ويُلفونها باالة ليجدوا فيها شبه الطعام وكان عدد لا يحصى من الجياع يأوون الى المستشفيات متلاصقين يختلط الاصحاء بالمرضى والموتى

وكان السوفيات قد تعهّدوا بان يعطونا الادوات اللازمة لتوزيع الاطعمة الّا انّهم كانوا يتماطلون ويترفّعون ويتنطّسون ثمّ وكلوا الى احد اليهود خدمتنا فوجدناه بئس الخادم وهو يريد ان يتولّى التدبير بنفسه دوننا ويتآمر على الماكين فيستثني الواحد لانّهُ كان غنيًّا فافتقر ويُسمد شيخًا مسنًّا لانّ الطعام للاولاد فقط ثمّ وجدناهُ يوماً يختلس طحيناً فأمكنّا بعد مدّةٍ ان ننجو من خدماته الثقيلة

وقد جهّزنا الاطعمة لتوزّعها على عدد ١٧،٢٠٠ ولد تُعطى لهم فئاتٍ فئاتٍ تتألّف الفئة من ثلاثمائة ولد . وفي يوم افتتاحنا للتوزيع زيّنّا مطعمنا باكاليل النبات والزهور يعلوها شمار الحبر الاعظم ممثّلًا مفاتيح القديس بطرس والتاج البابويّ المثلّث وفي ادناهُ بالروسيّة : البعثة الكاثوليكيّة المرسلة للشعب الروسيّ من قبل بابا رومية

وكان المطعم يُفتح يوميًّا في الساعة الحادية عشرة فيدخل الينا الفتية والفتيات بنظام اثنين اثنين وفي يد كلّ منهم وعاء اكله . فكنّا نقدّم لكلّ واحد كميّة كافية من البرغل وطاسةً من الشوكولاتا وقطعة من الخبز السميذ الطيّب . وكنا نعرض عليهم بكلام وجيز غاية بعثتنا ومحبّة الحبر الروماني لاولاده الروسيّين فيترجم كلامنا احد الحضور

وبعد زمن قليل تعدّدت مطاعمنا في جهات مختلفة حتى بلغناها ٢٣٩ مطعماً في ناحيتي اوباتورية وجانكاوي فقط وكان عدد الاولاد الذين يقتاتون بخدمتنا نحو ٣٣،٤٠٠ ولد

٥ كرسنودار

بعد ان تنظّم عملنا في هذه النواحي فكّرنا في فتح مطاعم في جهات أُخرى فكان الآباء السالازيون توجّهوا الى موسكو والرهبان الاسبانيّون كانوا يلازمون العمل في روستوف . فدُعينا نحن اليسوعيّين الى كوبان بلاد القوزاق في جهات البحر الاسود وتعيّنت لشغلنا مدينة كرسنودار . فركبنا مركباً روسيًّا أقلّنا في ٨ ت١ الى مدينة نوفوروسيسك (Novorossisk) . فعند نزولنا دخلنا مطعماً قريباً من

البحر لفطورنا. فاذا هو نُزُلٌ للسوفيات وجدنا على جداره صورةً شنيعة تدلُّ على همجيَّة القوم فكانوا عمدوا الى صورة بزنطيَّة للعذراء مريم حاملة الطفل يسوع بين ذراعيها وعلى جانبيها ملاكان حاملان آلات الآلام فسخروها مشنعين فجعلوا صورة الرئيس تشرنوف بدلًا من صورة البتول وكولتشاك في مكان الطفل الالهي وفي يده رقٌ كتبوا عليه: اقتلوا الفلاحين والعمّال. ووضعوا في يدَي الملاكين رأسي يودنيتش ودَنيكين مع اسمائهما. فعرفنا بذلك بغضهم للجيش الابيض القائم لمحاربتهم والروح السيّئة المالكة على افكارهم

على انَّهم لم يتأخروا هذه الدفعة في توقيفنا. وفي صباح اليوم التالي ركبنا القطار الى كرسنودار وكنا في طريقنا نقرأ اعلانات السوفيات لنشر مبادئهم فمنها ما كان على صفائح القطارات ومنها على جدران الابنية بينها ما كُتب فيه: حاربوا الدول المتحالفة! يجب أن تحرّروا نفوسكم من ظلم ارباب الثروة والمتموّلين! ايها الوطني: هيَّا على الشغل! من لا يشتغل لا يستحقّ طعامهُ! وهلمَّ جرًّا

بنس الحالة وجدنا فيها اهالي كرسنودار فكنَّا نرى العشرات منهم مضجعين في الشمس عريانين وسخين شاحبي اللون متراكمين بعضهم على البعض كجثث الموتى ولا احد يحنُّ عليهم

وكان بقرب المحطَّة سيَّارتان ارسلها رئيس السوفيات لنقلنا الى احد المطاعم الكبرى التي كانوا اغتصبوها من اهلها لزعمهم انَّ كافَّة الابنية والاموال تخصُّ الدولة دون الافراد فجعلوا ذلك المطعم في خدمتنا

وكانت اوَّل زيارتنا لاسواق المدينة لنقف فيها على احوال الاهلين فاذا هناك قومٌ من المنكوبين البؤساء يعرضون على التجار بقايا مالهم وأثاثهم ليعتاضوا عنها قليلًا من الطعام. فهذا يقدّم زوجاً من الجوارب وذاك قميصاً والآخر ثوباً ومعظمهم لابسون الأسمال الرثَّة يجاهدون الجهاد الاخير مع الحياة

وفي سوق آخر يبيع الاغنياء ما كان لديهم من الفراء والساعات والمصاغات والكتب وآنية الموائد وهم ساكتون جامدون ينتظرون دون حراك ان يُحسن عليهم احد المشترين لينجوا بثمن تلك المبيعات من عذاب الجوع

على انَّ هذه الاحوال السيّئة كلا شيء بالنسبة الى ما في داخل البيوت من الشقاء

والفقر المدقع . وكانت النساء اللواتي نرسلهنَّ لنقف على حاجات اصحابها يَعُدْنَ الينا وامارات الكآبة على وجوههنَّ فيقلن لنا : اننا ما كنَّا لنظنَّ ان اوجاع الناس يمكنها ان تبلغ هذا المبلغ من العدم والشقاء . وهذه بعض الامثال الدالَّة على قولنا

اتتنا يوماً احدى السيدات التي كانت تتباهى عزًّا في نوادي باريس ولندن وهي اليوم تسير حافيةً في الازقة وقد سلبها البولشفيك كلَّ اموالها وهي تأوي اليوم في الليل الى بيت امرأة محسنة اليها . فكان قدومها علينا مساء في الساعة الثامنة والنصف . فدعوتها الى الدخول فاعتذرت . فألححتُ عليها فقالت : اني استحي ان يراني احد في نور الضوء لسبب ثيابي الرثَّة . فخرجتُ اليها . فالتمستْ مني ثياباً تقيها من برد الليل لأنها رأت نفسها في الليلة الماضية على وشك الموت برداً . فأعطيتها قسماً من ثيابي . فعادت بعد أيام شاكرةً لي وقالت أنها تغرَّبت على نيَّتي !

اخبرني بعضهم انَّ في المدينة عيلة احد كبار الجيش القدماء قتيل الحرب كانت امرأتهُ ملقاةً في الفراش فذهبتُ لعيادتها فاذا هي وخمسة من اولادها في غرفة صغيرة . فرأيت في صدر الغرفة صورة العذراء امامها سراجٌ منير . وكان هناك فراشٌ مضَّجع فيه ابنها البكر وعمرهُ ١٧ سنة مصاب بمرض عضال . والابن الثاني في سن الخامسة عشرة دخل صانعاً في احد المعامل حيث تتراكم عليه الاشغال المضنكة من الصباح الى الساعة الثامنة ليلاً فلا يربح في الشهر اكثر من اربعين مليوناً من الروبل (اعني ٤٠ فرنكاً) . وكانت الامّ طريحة الفراش . لما قاسته من التعب المضنك في سبيل عيلتها وكان بين ذراعيها ابنها الصغير وعمرهُ ثلاث سنوات بادية على وجهه امارات الموت رأسهُ على صدر امه لا يستطيع ان يرفعهُ لضعفه فمات بعد قليل . فاسرعنا الى مساعدة هذه العيلة البائسة

ووجدنا في بيت آخر ارملة احد الضبَّاط غائصةً في الاوجاع والاحزان اضطرَّت ان تسلِّم ابنتها الصغير الى بعض المحسنين اذ لم تجد ما تقوتهُ به وهي تقضي صُلب نهارها في كناسة وتنظيف البيوت لتعيش فقالت لنا : لو شئتُ لعشتُ بأرغد عيش مع المومسات لكني افضل الفقر المدقع . ومع انها لم تكتسِ إلَّا بحاجتها من الثياب تعرَّت عن فروة دافئة لتُحسن بها على امرأة افقر منها فأصبحت اليوم تقاسي شدائد البرد القارس

فهذه امثلة تبيّن ما تكابدهُ الوف من الأمهات والزوجات اللواتي فقدن رجالهنّ فكنّا لا نذّخر وسعاً لتلطيف اوجاعهنّ وتعزيز فضيلتهنّ وايمانهنّ

ثمّ طلبنا سيّارةً لزور المستشفيات والمياتم والمآوي . وكان السوفيات انشأوا في كَسْتودار مدرسةً طبيّة وألحقوا بها مستشفى جراحيا . فابتدأنا بزيارته فاذا الطبيب الجرّاح المندوب الى ادارتها من ذوي الفضل والادب لم يسَع السوفيات ان يجعلوا مكانهُ غيرهُ من ذويهم . ففتح لنا كلّ غرف المستشفى فوجدناها غاية في الترتيب والنظام . وكان جعل في قاعة العمليّات الجراحيّة ايقونة السيّد المسيح في آلامهِ ليحتمل الجرحى آلامهم واذا تعجّلهم الموت ماتوا على ايمانهم . فأثنينا كل الثناء على هذا الرجل الصالح الذي لم يشكُ سوى امر واحد قلّة الوسائط والمال لمعالجة المرضى

ثم دخلنا معملًا لاستحضار لقائح التيفوس نهبهُ البولشفيك في ايّام الفوضى وتركوهُ مهملًا ثمّ جعلوهُ مأوًى لألف وخمسمائة من المنكوبين الذين قصدوا المدينة لسبب المعاش . يعجز القلم عن وصف ما وجدناهُ في هؤلاء من البؤس والقذارة كدنا نغطس لكراهة روائح ذلك المأوى . امّا سكّانه فاشبه بجثث الموتى منهم بالبشر لما يقاسونهُ من مضض المجاعة والامراض . تدلُّ عيونهم الناعسة وافواههم المتفتّحة على بلادة وحمق . والاولاد اسوأهم حالًا تراهم متكدّسين على الحضيض لا يكاد يستر جسمهم الّا اثواب بالية رثّة يُستشفّ من وراءها منظر اعضائهم الهزيلة الناحلة المنبئة بقرب انحلالها وفنائها

ثمّ سرنا الى دار اخرى جمعوا فيها نحو مئة من الاحداث وجدناهم يلعبون فسُررنا لفرحهم ونشاطهم واقبلوا يسلّمون علينا ورأينا مترلهم نظيفاً الّا انهُ غاية في الفقر . فوافق منامهم مكسّرة لا فراش لهم الّا اسرّة من الحديد خالية من المطارح والبساطات ينام ثلثة اولاد على سريرين يغطّيهم لحافٌ واحد يتكشف غالباً عن اثنين منهم فيقاسيان زمهرير البرد طول ليلهم

وفي اثناء ذلك جاء الى كَسْتودار ونيس البوثيات المقيم في كوبان فذهبنا للسلام عليهِ فقصّ علينا ما يعانيهِ اهل معاملتهِ من آلام المجاعة ما أسال دموعنا رحمةً عليهم . ومما قالهُ انّ في اقليم كوبان ثلثة ملايين من السكّان وانّ الثلثين منهم مصابون بالحميات الخبيثة والتيفوس والجرَب وليس من دواء لعلاجهم . فألحّ علينا بان نطلب

برقياً من القاتيكان ادويةً . فارسلنا برقيةً للحال الى الحبر الاعظم نعلمهُ بحاجة هؤلاء المنكوبين فكان الجواب ان قداستهُ امر بإرسال ادوية بثمن مليون ليرة ايطاليَّة . فشكرنا اربابُ الحكومة على هذه المنَّة واخذوا يعاملوننا بلطف وانبساط وامكننا هكذا ان نهتمّ بنوع خاصّ بالكاثوليك الذين هناك وكان خوفهم من السوفيات ضعضع قواهم وكسر اعضادهم

وكنا نودّ ان نتقرَّب من الاكليروس الروسي فنزور اسقف المدينة ونقدّم لهُ ولكنيسته خدَمنا ليستفيدوا من وسائل العاش التي لدينا لكننا أجلنا ذلك الى الوقت المناسب لاسيما اذ عرفنا ما يشيعونهُ عنا من الاخبار الكاذبة فيزعمون اننا اتينا لندعو المنفصلين عنا الى طاعة الحبر الروماني ليستعبدهم ويضغط عليهم بسيطرتهِ . وكان غيرهم يقولون اننا نريد تشييد المدارس والكنائس والاديرة الكاثوليكيَّة . وكان الاسقف عينهُ وكهنتهُ يحذّرون الناس من مخالطتنا ومن الانخداع باقوالنا . لكنّ هذه الاشاعات لم تؤثر في الملتجئين الينا

أما نحن فبقينا طول زمن اقامتنا بينهم نتصرَّف بكل نزاهة وسذاجة لا نفتح معهم مسئلةً دينيَّة إلَّا اذا بادَهونا بها نجيبهم متحايدين عن كل جدال . وكنا غالباً نكتفي بان نرفع نظر الوافدين الى امور الآخرة ليصبروا على اوجاعهم ويجعلوا ثقتهم بالله وبالعذراء التي يكرمونها اكراماً جزيلاً . واذا ذكرنا الحبر الاعظم لا نذكر سوى حنانهِ على الشعب الروسي وتمنّيه ان يحظى بالسلام والراحة هذه كانت خطَّتنا . على اننا لم نكن لننسى خلاص هؤلاء المساكين فنطلب من الربّ ان ينير عقولهم ويردّهم الى الحظيرة البطرسيَّة ليتمّ فيهم قول الربّ ان تكون الرعيَّة واحدة والراعي واحداً . قرَّب الله ايام وحدة القلوب بوحدة الايمان

(لها بقيَّة)